فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ منَ الشِّعرِ لحُكْماً ، وإنَّ منَ البيانِ لسِحْراً** »(١) .

وقيل للعتّابيِّ : (إنَّك تلقى العامة ببشرٍ وتقريب ؟ قال : **دفعُ ضغينة بأيسر مؤونة ، واكتسابُ إخوان بأهون مبذول**)(٢) .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن قلَّ حياؤُه . . قلَّ أحباؤُه**)(٣) .

وقال بعض الشعراء(٤) : [من الرجز]

بُنـــيَّ إنَّ البِـــرَّ شـــيءٌ هيِّـــنُ وجـــهٌ طَليـــقٌ وكـــلامٌ ليِّـــنُ

وأنشدني بعض أهل العلم : [من السريع]

المـــرءُ لا يُعـــرَفُ مِقـــدارُهُ مـــا لـــم تَبِـــنْ للنـــاسِ أفعـــالُـــهُ
وكـــلُّ مَـــن يمنعُنـــي بِشْـــرَهُ فقلَّمـــا ينفعُنـــي مـــالُـــهُ

* * *

وأمّا العملُ : فهو بذل الجاه ، والإسعاد بالنفس ، والمعونة في النائبة ، **وهٰذا يبعث عليه حبُّ الخير للناس** ، وإيثارُ الصلاح لهم ، **وليس في هٰذه الأمور سرَفٌ** ، ولا لغايتها حدٌّ ، بخلاف النوع الأول ؛ لأنها وإن كثرت . . فهي أفعال خيرٍ تعود بنفعين ؛ **نفع علىٰ فاعلها** في اكتساب الأجر ، وجميل الذكر ، **ونفع على المُعان بها في التخفيف عنه** ، والمساعدة له .

وقد روىٰ محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنهما :

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/٣٣٦) ، و« العمدة » (١/٤٠٨) ، **والمنشد** : هو سيدنا العلاء بن الحضرميِّ رضي الله عنه ، والمرفوع رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٦١٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/٨٢) . **والنَّغَل** : فساد الجلد في دباغه ، وفي (ج) : (يُرفَع النَّغَلْ) أي : الضِّغْن . **ونبسوا** : تكلَّموا أقلَّ الكلام .

(٢) رواه في « تاريخ بغداد » (١٢/٤٨٧) ، وأورده في « بهجة المجالس » (١/٦٦٥) .

(٣) ذكره في « فيض القدير » (٥/٣٣) .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٤٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وأورده في « محاضرات الأدباء » (١/٥٧٢) لسفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « كلُّ معروفٍ صدَقةٌ »[1] .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « صنائعُ المعروفِ تَقي مَصارِعَ السُّوءِ »[2] .

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « المعروفُ كاسمه ، وأوّلُ مَن يدخُلُ الجنّةَ يومَ القيامةِ المعروفُ وأهلُهُ »[3] .

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : (لا يزهدَنَّك في المعروف كفرُ مَن كفره ؛ فقد يشكر الشاكر بإضعافِ جحود الكافر)[4] .

وقال الحطيئة[5] : [من البسيط]

مَن يفعلِ الخيرَ لا يَعدَمْ جَوازِيَهُ ... لا يذهبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والنّاسِ

وأنشد الرِّياشيُّ[6] : [من الوافر]

يدُ المعروفِ غُنْمٌ حيثُ كانَتْ ... تحمَّلَها كَفُورٌ أو شَكُورُ
ففي شُكْرِ الشَّكُورِ لها جزاءٌ ... وعندَ اللهِ ما كفرَ الكَفُورُ

فينبغي لمَن قدر علىٰ إسداء المعروف : أن يعجله حذرَ فواته ، ويبادر به خيفةَ عجزه ، وليعلمْ أنه من فُرَص زمانه وغنائم إمكانه ، ولا يهمله ثقةً بالقدرة عليه ، فكم من واثقٍ بالقدرة زالت عنه ، ومن مهمل المعروف خاب منه ، وكم واثقٍ بقدرةٍ فاتت ، فأعقبت ندماً ، ومعوِّلٍ علىٰ مُكْنةٍ زالت ، فأورثت خجَلاً ؛ كما قال الشاعر[7] : [من البسيط]

ما زلتُ أسمعُ كَمْ من واثقٍ خَجِلٍ ... حتّى ابتُلِيتُ فكنتُ الواثقَ الخَجِلا

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢١) ، والترمذي (١٩٧٠) .
(٢) رواه الشهاب في « المسند » (١٠٢) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٩٤٣) عن سيدنا معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه .
(٣) أورده في « ديوان المعاني » (١/ ١٥٤) ، ورواه ابن شاذان في « مشيخته » (٦٧) .
(٤) أورده المبرّد في « الفاضل » (ص ٩٤) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٩/ ٢٤) بنحوه .
(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٥١) .
(٦) البيتان لعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٧٩) ، وأوردهما في « ربيع الأبرار » (٥/ ٣٢٣) لجعفر بن محمد الصادق رحمهما الله تعالىٰ .
(٧) أورد البيت في « يتيمة الدهر » (٣/ ١٠٦) لابن حجاج .

ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفَّظ من عواقب مكره.. لكانت مغانمُه مذخورة ، ومغارمُه مجبورة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن فُتِحَ عليه بابٌ منَ الخيرِ . فلْينتهِزْهُ ؛ فإنَّه لا يدري متىٰ يُغلَقُ عنه »[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكلِّ شيءٍ ثمرةٌ ، وثمرةُ المعروفِ تعجيلُ السَّراحِ »[2] .

وقيل لأنوشروان : (ما أعظمُ المصائب عندكم ؟ فقال : أن تقدرَ على المعروف ، فلا تصطنعَه حتّىٰ يفوتَ)[3] .

وقال عبد الحميد : (مَن أخَّر الفرصة عن وقتها.. فليكنْ علىٰ ثقةٍ من فَوتها)[4] .

وقال حكيم : (خيرُ البرِّ ما وافقَ وقتَ الحاجة) .

وقال بعض الشعراء[5] : [من الوافر]

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغتنِمْها ... فإنَّ لكلِّ خافقةٍ سُكُونُ
ولا تغفَلْ عنِ الإحسانِ فيها ... فما تدري السُّكونُ متىٰ يكونُ
وإن درَّت نياقك فاحتلبها ... فما تدري الفصيل لمن يكونُ

وحُكي : أن بعض وزراء بني العبّاس مطل راغباً إليه في عملٍ يستكفيه إياه ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٢٣٣٥) ، وابن المبارك في « الزهد » (١١٧) عن حكيم بن عمير رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٢) رواه في « ديوان المعاني » (١/ ١٥٤) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأورده في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٢٦٣) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) ذكره القرطبي في « تفسيره » (٥/ ٣٨٤) .

(٤) ذكره القرطبي في « تفسيره » (٥/ ٣٨٤) معزواً لقائله ، وأورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٣٧) دون نسبة .

(٥) البيتان في « ديوان علي بن أبي طالب » (ص ٢٥٩) ، وفي « ديوان الشافعي » (ص ١٣٣) ، والبيت الثالث زيادة من (هـ) .

فكتب إليه بعد طول المَطل به : [من الوافر]

أمَا يدعُوكَ طُولُ الصَّبرِ منِّي ... علىٰ استئنافِ منفعتي وشُغلي
وعلمُكَ أنَّ ذا السلطانِ غادٍ ... علىٰ خطَرَين من موتٍ وعَزلِ
وأنَّكَ إنْ تركتَ قضاءَ حقِّي ... إلىٰ وقتِ التَّفرُّغِ والتَّخلِّي
ستُصبحُ نادماً أسِفاً مُعزّىً ... علىٰ فَوتِ الصَّنيعةِ عندَ مثلي

وكتب بعض ذوي الحُرمات إلىٰ والٍ قصَّر في رعاية حرمته[1] : [من الكامل]

أعَلى الصِّراطِ تُريدُ رَعْيَةَ حُرمتي ... أمْ في الحِسابِ تمُنُّ بالإنعامِ
للنَّفعِ في الدنيا أُريدكَ فانتبِهْ ... لحوائجي مِن رقدةِ النُّوّامِ

كتب أبو علي البصير إلىٰ بعض الوزراء وقد اعتذر إليه بكثرة الأشغال[2] : [من الطويل]

لنا كلَّ يومٍ نَوبةٌ قد نَنُوبُها ... وليسَ لنا رزقٌ ولا عندَنا فَضْلُ
فإنْ تعتذِرْ بالشُّغْلِ عنّا فإنَّما ... تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصلَ الشُّغْلُ

واعلم : أنَّ للمعروف شروطاً لا يتمُّ إلا بها ، ولا يكملُ إلا معها .

فمن ذلك : ستره عن إذاعةٍ يستطيل لها ، وإخفاؤه عن إشاعةٍ يستذلُّ بها ؛ فقد قال بعض الحكماء : (إذا اصطنعتَ المعروفَ . . فاستُرْه ، وإذا اصطُنِع إليك . . فانشُرْه)[3] .

وقال دِعْبل الخزاعيُّ[4] : [من المتقارب]

إذا انتقَمُوا أعلَنُوا أمرَهُمْ ... وإن أنعَمُوا أنعَمُوا باكتِتامِ
يقومُ القُعُودُ إذا أقبَلُوا ... وتقعُدُ هيبتُهُمْ بالقِيامِ

---

(١) أورد البيت الأول في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٤٠٢) لمعاوية بن أبي أيوب .
(٢) أورد البيت الثاني في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٩١) ، و« معجم الشعراء » (ص ٢٢٦) .
(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .
(٤) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٢١) .

علىٰ أنَّ سترَ **المعروف** من أقوىٰ أسباب ظهوره ، **وأبلغ دواعي نشره ؛ لما** جُبلت عليه النفوس من إظهار ما أُخفي ، وإعلان ما كُتم .

وقد قال سهل بن هارون(1) : [من البسيط]

خِـلٌّ إذا جئتَـهُ يـومـاً لتسـألَـهُ ... أعطـاكَ مـا ملَكَتْ كفَّاهُ واعتـذَرا
يُخفـي صنـائعَـهُ واللهُ يُظهِـرُهـا ... إنَّ الجميـلَ إذا أخفيتَـهُ ظهَـرا

❀ ❀ ❀

ومن شروط المعروف : تصغيرُه عن أن يراه مستكبَراً ، وتقليلُه عن أن يكون مستكثراً ؛ **لئلاّ يصير مُدِلاًّ بطِراً ، أو مستطيلاً أشِراً** .

قال العبّاس بن عبد المطلب رضي الله تعالىٰ عنه : (**لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث خصال** : تعجيلِهِ ، وتصغيرِهِ ، وسترِهِ ؛ **فإذا عجَّلته** . . هنَّأته ، **وإذا صغَّرته** . . عظَّمته ، **وإذا سترتَه** . . أتممتَه)(2) .

وقال بعض الشعراء(3) : [من الرمل]

زادَ معـروفُـكَ عنـدي عِظَمـاً ... أنَّـهُ عنـدَكَ مستـورٌ حقيـرُ
تتنـاسـاه كـأنْ لـم تـأتِـهِ ... وَهْوَ عندَ النّاسِ مشهـورٌ خطيـرُ

❀ ❀ ❀

ومن شروط المعروف : مجانبةُ الامتنان به ، وتركُ الإعجاب بفعله ؛ **لما فيهما من إسقاط الشكر ، وإحباط الأجر** .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إيّاكم والامتنانَ بالمعروفِ** ؛ فإنَّه يُبطلُ الشُّكرَ ، ويمحَقُ الأجرَ ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ »(4) .

---

(1) أورد البيتين في « المحاسن والأضداد » (ص ٥٦) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ٢١٠) دون نسبة .
(2) رواه ابن أبي الدنيا في « اصطناع المعروف » (٢٢) ، وابن شاذان في « مشيخته » (٦٧) .
(3) البيتان في « الشعر والشعراء » (٢/ ٨٥٦) ، و« المنصف » (١/ ٣٧٣) لأبي يعقوب الخريميّ .
(4) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٤٩٦) ، وانظر « تفسير القرطبي » ٣/ ٣١٢) .

وسمع ابنُ سيرين رجلاً يقول لرجلٍ : **فعلتُ إليكَ وفعلتُ** ، فقال ابن سيرين : (**اسكتْ ، فلا خيرَ في المعروف إذا أُحصِي**)[1] .

وقال بعض الحكماء : (**المَنُّ : مَفسدةُ الصنيعة**)[2] .

وقال بعض الأدباء : (**كدَّرَ معروفاً امتنانٌ ، وضيَّعَ حسَباً امتهانٌ**) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن منَّ بمعروفه.. سقط شكرُه ، ومَن أُعجِب بعمله.. حبِطَ أجرُه**)[3] .

وقال بعض الفصحاء : (**قوّةُ المِنَن من ضعف المُنَن**) .

وقال بعض الشعراء[4] : [من البسيط]

أفسدتَ بالمَنِّ ما أسديتَ من حَسَنٍ ... ليس الكريمُ إذا أَسدىٰ بمنَّانِ

وقال أبو نواس[5] : [من المديد]

فامْضِ لا تَمْنُنْ علَيَّ يداً ... مَنُّكَ المعروفَ مِن كَدَرِهْ

وأُنشدتُ عن الربيع للشافعي رحمهم الله[6] : [من مجزوء الكامل]

لا تحمِلَنَّ لِمَنْ يَمُنُّ ... مِنَ الأنام عليكَ مِنَّةْ
واختَرْ لنفسِكَ حَظَّها ... واصبرْ فإنَّ الصَّبْرَ جُنَّةْ
مِنَنُ الرجالِ على القلو ... بِ أَشَدُّ مِن وَقْعِ الأَسِنَّةْ

ومن شروط المعروف : ألا تحتقرَ منه شيئاً وإن كان قليلاً نَزْراً إذا كان الكثيرُ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ١٧٧) من قول ابن شُبْرُمة رحمه الله تعالىٰ ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٢٩/م) ، و« تاريخ دمشق » (٢٢/ ١٥٤) من قول سَلْم بن قتيبة رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٢٩) من قول سيدنا علي رضي الله عنه شعراً ، وهو في « ديوانه » (ص ١٦٨) .

(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .

(٤) أورده في « الصداقة والصديق » (ص ١٨٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٣٨٤) دون نسبة .

(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٤٢٨) .

(٦) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٤٩) .

مُعوزاً ، وكنتَ عنه عاجزاً ؛ فإنَّ مَن حقر يسيرَهُ فمنع منه . . أعجزه كثيرُه فامتنع عنه ، **وفعلُ قليل الخير أفضلُ من تركه** .

وقد رُوِي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا يَمنعَنَّكُم من معروفٍ صغيرُهُ** »[1] .

وقال عبد الله بن جعفر : (**لا تستحْيِ من القليل** ؛ فإنَّ المنعَ أقلُّ منه ، **ولا تجبُنْ عن الكثير** ؛ فإنَّكَ أكثرُ منه)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من الخفيف]

افعلِ الخيرَ ما استطَعْتَ وإنْ كا ... نَ يسيــراً فلــن تُحيــطَ بكلِّــهْ

ومتــىٰ تفعــلُ الكثيــرَ مــنَ الخَيــ ... ــرِ إذا كنــتَ تــاركــاً لأقلِّــهْ

علىٰ أنَّ من المعروف ما لا كلفة علىٰ مُوليه ، ولا مشقّةَ علىٰ مُسديه ، وإنَّما **هو جاهٌ يستظلُّ به الأدنىٰ** ، ويرتفقُ به التابعُ .

وقد قال الشاعر[4] : [من السريع]

ظِــلُّ الفتــىٰ ينفَــعُ مَــن دونَــهُ ... ومــا لــهُ فــي ظِلِّــهِ حَــظُّ

* * *

واعلم : أنك لن تستطيع أن تُوسعَ جميعَ الناس معروفَك ، ولا أن تُوليَهم إحسانَك ، **فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحِفاظ** ، واقصد به ذوي الرعاية والوداد ؛ **ليكون معروفُك فيهم نامياً** ، وصنيعُك عندهم زاكياً .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا تنفعُ الصَّنيعةُ إلا عند ذي حَسَبٍ ودِينٍ** »[5] .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٩٠) .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٩٠) ، و« نثر الدرّ » (١/ ٤٢٣) .

(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٢/ ٢١٦) ، و« تاريخ دمشق » (١٧/ ٢٥٥) لعبد الله بن طاهر .

(٤) البيت لأبي الفتح البستيّ في « ديوانه » (ص ٢٢٧) .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » بنحوه (١٠٤٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٣٦٨) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالىٰ بعبدٍ خيراً . . جعَلَ صنائعَه في أهلِ الحِفاظِ »[1] .

وقال حسان بن ثابت الأنصاري[2] : [من الكامل]

إنَّ الصَّنيعــةَ لا تكــونُ صَنيعــةً حتّىٰ يُصابَ بها طريقُ المَصنَعِ
فـإذا صنعـتَ صَنيعـةً فـاعمَـلْ بهـا للهِ أو لــذوي القَــرابــةِ أو دَعِ

وقيل في منثور الحكم : (لا خيرَ في معروفٍ إلىٰ غيرِ عَرُوفٍ)[3] .

وقد ضرب به الشاعر مثلاً ، فقال[4] : [من المديد]

كحمــارِ السُّــوءِ إنْ أشبعتَــهُ رَمَــحَ النّــاسَ وإنْ جــاعَ نَهَــقْ

وقد قال بعض الحكماء : (علىٰ قدر المَغارس يكون اجتناءُ الغارس) .

فأخذه بعض الشعراء فقال[5] : [من الطويل]

لَعَمْرُكَ ما المعروفُ في غيرِ أهلِهِ وفـي أهلِـهِ إلا كبعـضِ الـودائـعِ
فمُستودَعٌ ضاعَ الذي كان عندَهُ ومُستـودَعٌ مـا عنـدَه غيـرُ ضـائـعِ
وما النّاسُ في شُكرِ الصَّنيعةِ عندَهُمْ وفـي كُفْـرِهـا إلا كبعـضِ المَـزارعِ
فمَـزرعـةٌ طـابَـتْ وأضعَـفَ نبتُهـا ومَـزرعـةٌ أكـدَتْ علـىٰ كـلِّ زارعِ

فأمّا مَن أُسدِي إليه المعروفُ ، واصطُنِع إليه الإحسانُ . . فقد صار بأسر المعروف مُوثَقاً ، وفي ملَكة الإحسان مرقوقاً ، ولزمه إن كان من أهل المكافأة . . أن يُكافىءَ عليها ، وإن لم يكن من أهلها . . أن يقابلَ المعروفَ بنشره ، ويُجازيَ الفاعلَ بشكره .

---

(١) أورده الديلمي في « الفردوس » (٩٣٦) عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها .
(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٩٣) ، ونسبهما في « معجم الشعراء » (ص ٥٢٩) للهذيل الأشجعيّ .
(٣) أورده في « الكشكول » (١/ ٢٢٩) من كلام سيدنا علي رضي الله عنه .
(٤) البيت لمسكين الدارمي في « ديوانه » (ص٧٨) .
(٥) أورد الأبيات في « روضة العقلاء » (٢/ ٩١٧ـ ٩١٨) لعبد الله بن همام السلولي ، وفي « المنتحل » (ص٨٣) .

رُوِي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن أُودِعَ معروفاً . . فلْينشُرْهُ ؛ فإنْ نشَرَهُ . . فقد شكَرَهُ ، وإنْ كتَمَهُ . . فقد كفَرَهُ** »[1] .

وروى الزهريُّ ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت : دخل عليَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثَّلُ بهـٰذين البيتين : [من الكامل]

ارفَعْ ضَعيفَكَ لا يَحُرْ بكَ ضَعفُهُ يوماً فتدركَهُ العَواقبُ قد نَمىٰ
يَجزِيكَ أو يُثني عليكَ وإنَّ مَن أثنىٰ عليكَ بما فعلتَ فقد جَزىٰ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **رُدِّي عليَّ قول اليهوديِّ قاتلَه اللهُ ، لقد أتاني جبريلُ برسالةٍ من ربِّي تعالىٰ : أيُّما رجلٍ صنَعَ إلىٰ أخيهِ صَنيعةً ، فلم يجِدْ لها جزاءً إلا الدُّعاءَ والثناءَ . . فقد كافأه** »[2] .

وقيل في منثور الحكم : (**الشكرُ : قيدُ النِّعَمِ**)[3] .

وقال عبد الحميد : (**مَن لم يشكرِ الإنعامَ . . فاعدُدْه من الأنعام**) .

وقيل في منثور الحكم : (**قيمةُ كلِّ نعمةٍ شكرُها**) .

وقال بعض الحكماء : (**كفرُ النِّعم** : من أمارات البطَر ، وأسبابِ الغِيَر)[4] .

وقال بعض الفصحاء : (**الكريمُ** : شَكُور أو مشكور ، **واللئيم** : كَفُور أو مكفور) .

وقال بعض البلغاء : (**لا زوالَ للنِّعمة مع الشكر ، ولا بقاءَ لها مع الكفر**)[5] .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٤١٥) ، والشهاب في « مسنده » (٤٨٥) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « اصطناع المعروف » (٥٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٧١٤) . والبيتان للسَّموءل في « ديوانه » (ص٥٣) ، ونُسبا لزهير بن جَناب الكلبيّ في « ديوانه » (ص ١٢٠) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٣٤) .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ١٨٢) من قول محمد بن علي بن موسى بن جعفر .

(٥) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٥٤٤) ، و« تاريخ دمشق » (٦٠/ ٥٣) من قول سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

وقال بعض الأدباء : (**شكرُ الإلٰه** : بطول الثناء ، **وشكرُ الوُلاة** : بصدق الولاء ، **وشكرُ النظير** : بحسن الجزاء ، **وشكرُ مَن دونك** : بسَيب العطاء)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

فلو كان يستغني عن الشُّكرِ ماجدٌ ... لعِزَّةِ ملكٍ أو عُلوٍّ مكانِ
لَما أمرَ اللهُ العبادَ بشُكْرِهِ ... فقال اشكُرُوا لي أيُّها الثَّقَلانِ

فإنْ شكر معروف مَن أحسن إليه ، ونشر إنعام مَن أفضل عليه . . **فقد أدّىٰ حقّ النعمة** ، وقضىٰ موجَب الصَّنيعة ، **ولم يبقَ عليه إلا استدامة ذلك** ؛ إتماماً لشكره ، ليكون للمزيد مستحِقّاً ، ولمتابعة الإحسان مستوجِباً .

حُكي : أن الحجّاج أُتِي بقومٍ من الخوارج وكان **فيهم صديقٌ له** ، فأمر بقتلهم **إلا ذلك الصديق فإنه عفا عنه** ، وأطلقه ووصله ، فرجع الرجل إلىٰ قَطَريّ وكان من أصحابه ، فقال له : (**عُدْ إلىٰ قتال الحجّاج عدوِّ الله** ، فقال : هيهات !! **غَلَّ يداً مطلِقُها ، واسترقَّ رقبةً معتِقُها**) ، وأنشأ يقول : [من الكامل]

أأُقاتِلُ الحَجّاجَ عن سُلطانِهِ ... بيدٍ تُقِرُّ بأنَّها مَولاتُهُ
إنِّي إذاً لأخو الدَّناءةِ والذي ... شهدَتْ بأقبحِ فعلِهِ غَدَراتُهُ
ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءَهُ ... في الصفِّ واحتجَّتْ له فَعَلاتُهُ
أأقولُ جارَ عليَّ لا إنِّي إذاً ... لأَحقُّ مَن جارَتْ عليه وُلاتُهُ
وتحدَّث الأقوامُ أنَّ صنائعاً ... غُرِسَتْ لديَّ فحنظَلَتْ نَخَلاتُهُ[3]

وقيل في منثور الحكم : (**المعروفُ رِقٌّ ، والمكافأةُ عِتقٌ**)[4] .

---

(١) في (هـ) جعله شعراً من المتقارب لكن صدره أثلم فقال :

شكرُ الإلٰه بطول الثناء ... وشكرُ الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء ... وشكر الدَّني بحسن العطاء

(٢) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ١٩٦) .

(٣) رواه الجريريُّ في « الجليس الصالح » (١/ ٢٤٠) ولم يسمِّ الشاعر ، ونسب الأبيات في « زهر الآداب » (٢/ ٨٥٥) لعمران بن حِطّان ، وانظر « شعر الخوارج » (ص ١٦٩) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٢) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ١٥٢) من قول عبد الله بن المعتزّ .

ومِن أشكرِ الناس الذي يقول[1] : [من البسيط]

لأشكُـرَنَّـكَ معـروفـاً هَمَمْـتَ بِـهِ ... إنَّ اهتمامَكَ بالمعروفِ معروفُ
ولا ألـومُـكَ إنْ لـم يُمضِـهِ قَـدَرٌ ... فالشيءُ بالقَدَرِ المحتومِ مصروفُ

وهٰذا النوع من الشكر الذي يتعجَّل المعروفَ ، ويتقدَّم البرَّ . . قد يكون علىٰ وجوه :

ـ فيكون تارةً من حسن الثقة بالمشكور في وصول برِّه ، وإسداءِ عُرْفه ، ولا أرىٰ لمَن حسن به ظنُّ شاكرٍ أن يُخلف حسنَ ظنِّه فيه ، فيكونَ كما قال العتابي[2] : [من البسيط]

قد أَورَقَتْ فيكَ آمالي بوَعدِكَ لي ... وليـسَ فـي وَرَقِ الآمـالِ لـي ثَمَـرُ

* * *

ـ وقد يكون تارةً من فرط شكر الراجي ، وحسن مكافأة الآمل ، فلا يرضىٰ لنفسه إلا بتعجيل الحقِّ ، وإسلاف الشكر ، وليس لمَن صادف لمعروفه معدِناً زاكياً ، ومغرِساً نامياً . . أن يفوِّتَ نفسَه غُنْماً ، ولا يحرمَها ربحاً ، فهٰذا وجهٌ ثانٍ .

* * *

ـ وقد يكون تارةً ارتهاناً للمأمول ، وحثّاً للمسؤول ، وبحسَب ما أسلفه من الشكر يكون الذمُّ عند الإياس .

قال بعض الأدباء من حكماء المتقدِّمين : (مَن شكرَكَ علىٰ معروفٍ لم تُسدِهِ إليه . . فعاجِلْه بالبرِّ ؛ وإلا . . انعكس فصار ذمّاً)[3] .

---

(١) أورد البيتين في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٩١) ، و« المنتحل » (ص ٨٢) لمحمد بن حازم الباهليّ ، وفي « ديوانه » (ص٧٣ـ البقاعي) .
(٢) في (ج ، د) : (الغساني) .
(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٦٦) من قول أفلاطون .

وقال ابن الروميِّ في ذلك(١) : [من الطويل]

وما الحقدُ إلا توءمُ الشُّكرِ في الفتىٰ وبعضُ السَّجايا ينتسِبْنَ إلىٰ بعضِ
فحيثُ ترىٰ حِقداً علىٰ ذي إساءةٍ فثَمَّ ترىٰ شُكراً علىٰ حَسَنِ القرضِ
إذا الأرضُ أدَّتْ رَيعَ ما أنتَ زارعٌ منَ البَذْرِ فيها فَهْيَ ناهِيكَ من أرضِ

فأمّا مَن ستر معروف المنعِم ، ولم يشكر علىٰ ما أولاه من نعمٍ . . **فقد كفر النعمة** ، وجحد الصَّنيعة ، **وأنبأ من دنيِّ الخلائق وسوء الطرائق** عمّا يستوجب به قبحَ الردِّ ، وسوءَ المنعِ .

فقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا يشكُرُ اللهَ مَن لا يشكُرُ الناسَ** »(٢) .

وقال بعض الأدباء : (**مَن لم يشكرْ لمُنعِمه** . . استحقَّ قطعَ نعمه)(٣) .

وقال بعض الفصحاء : (**مَن كفر نعمةَ المفيد** . . استوجبَ حرمانَ المزيد) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن أنكر حسنَ الصَّنيعة** . . استوجب قبحَ القطيعة)(٤) .

وأنشدني بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلي بن أبي طالب عليه السلام(٥) : [من السريع]

مَن جاورَ النِّعمةَ بالشُّكرِ لم يَخشَ على النِّعمةِ مُغتالَها
لو شكَرُوا النعمةَ زادتْهُمُ مَقالةُ اللهِ التي قالَها
لئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ لكنَّما كُفْرُهُمُ غالَها
والكفرُ بالنِّعمةِ يدعو إلىٰ زوالِها والشُّكرُ أبقىٰ لَها

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (٤/ ١٣٨٠) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .
(٣) رواه في « الطيوريّات » (٨١٢) من قول السَّريّ السَّقَطيّ رحمه الله تعالىٰ .
(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .
(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٩٢) .

فهـٰذا آخر ما يتعلَّق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة .

❁ ❁ ❁

وأمّا القاعدة الثالثة . . فهي المادة الكافية ؛ لأنَّ حاجة الإنسان لازمةٌ لا يعرىٰ منها بشرٌ[1] ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴾ .

فإذا عدم المادة التي هي قِوام نفسه . . لم تدُمْ له حياة ، ولم تستقم له دنيا ، وإذا تعذَّر شيءٌ منها عليه . . لحقه من الوهن في نفسه ، والاختلالِ في دنياه بقدر ما تعذَّر من المادة عليه ؛ لأن الشيء القائم بغيره يكملُ بكماله ، ويختلُّ باختلاله .

ثم لمّا كانت الموادُّ مطلوبةً ؛ لحاجة الكافّة إليها . . أعوزت بغير طلب ، وعدمت لغير سبب ، وأسبابُ المواد مختلفة ، وجهاتُ المكاسب متشعِّبة ؛ ليكون اختلاف أسبابها علّةً للائتلاف بها ، وتشعُّبُ جهاتها توسعةً لطلابها ؛ كي لا يجتمعوا علىٰ سبب واحد فلا يلتئمون ، أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون .

ثم هداهم الله تعالىٰ إليها بعقولهم ، وأرشدهم إليها بطباعهم ؛ حتّىٰ لا يتكلَّفوا ائتلافَهم في المعايش المختلفة فيعجزوا ، ولا يُعانوا تقديرَ موادِّهم بالمكاسب المتشعِّبة فيختلُّوا ؛ حكمةً منه سبحانه وتعالى اطَّلع بها علىٰ عواقب الأمور .

❁ ❁ ❁

وقد أنبأ الله تعالىٰ في كتابه إخباراً وإذكاراً بقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

فاختلف المفسرون في تأويل ذلك :

فقال قتادة : (أعطىٰ كلَّ شيءٍ ما يصلحه ، ثم هداه له) .

---

(١) لا يعرىٰ : لا يتجرد .

وقال مجاهد : (**أعطىٰ كلَّ شيءٍ صورته ، ثم هداه لمعيشته**) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (**أعطىٰ كلَّ شيءٍ زوجه ، ثم هداه لنكاحه**)[1] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني : **معايشَهم ؛ متىٰ يزرعون ، ومتىٰ يغرسون** ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ .

قال عكرمة : (**قدَّر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرىٰ ؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلىٰ بلد**) .

وقال الحسن البصري وعبد الرحمـٰن بن زيد : (**قدَّر أرزاق أهلها سواءً للسائلين الزيادةَ في أرزاقهم**)[2] .

ثم إن الله تعالىٰ جعل لهم مع ما هداهم إليه من مكاسبهم ، وأرشدهم إليه من معايشهم ديناً يكون لهم حكَماً ، وشرعاً يكون عليهم قيِّماً ؛ ليصلوا إلىٰ موادِّهم بتقديره ، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره ؛ حتىٰ لا ينفردوا بإرادتهم فيتغالبوا ، ولا تستوليَ عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قال المفسرون : (**الحقُّ في هـٰذا الموضع** : هو الله سبحانه وتعالىٰ)[3] .

فلأجل ذلك لم يجعل الموادَّ مطلوبةً بالإلهام حتىٰ جعل العقل هادياً إليها ، والدِّين قاضياً عليها ؛ لتتمَّ السعادة ، وتعمَّ المصلحة .

ثم إنه ـ جلَّت عظمته ـ جعل سدَّ حاجتهم ، وتوصُّلَهم إلىٰ منافعهم من وجهين : بمادّة ، وكسب .

---

(١) روىٰ هـٰذه الأقوال الطبري في « تفسيره » (٩/١٦/٢١٧ـ٢١٨) .

(٢) روى الطبري هـٰذه الأقوال في « تفسيره » (١٢/٢٤/١١٧ ، ١١٩) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٠/١٨/٥٥) .

أمّا المادّةُ : فهي حادثةٌ عن اقتناء أصولٍ ناميةٍ بذواتها ؛ **وهي شيئان** : **نَبْتٌ** نامٍ ، وحيوانٌ متناسِلٌ .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ ، قال أبو صالح : (**أغنىٰ** : **خلقه** بالمال ، **وأقنىٰ** : جعل لهم قِنية ، هي أصول الأموال)[1] .

﴿ ﴿ ﴿

وأمّا الكسبُ : فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة ، والتصرُّف المؤدِّي إلى الحاجة ؛ **وذلك من وجهين** : **أحدهما** : تقلُّبٌ في تجارة ، **والثاني** : تصرُّفٌ في صناعة ، **وهٰذان الوجهان هما فرعٌ لوجهي المادة** .

فصارت أسباب الموادِّ المألوفة ، وجهاتُ المكاسب المعروفة . . **من أربعة أوجه** : نماء زراعة ، ونِتاج حيوان ، وربح تجارة ، وكسب صناعة .

وقد حكى الحسن بن رجاء نحو ذلك عن المأمون قال : سمعته يقول : (**معايشُ الناس علىٰ أربعة أقسام** : زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وإمارة ؛ **فمَن خرج عنها . . كان كَلّاً عليها**)[2] .

وإذ قد تقرَّرت أسباب الموادّ بما ذكرنا . . فسنصف حال كل واحدٍ منها بقولٍ موجزٍ :

﴿ ﴿ ﴿

أمّا الأول من أسبابها وهو الزراعة : فهي مادّة أهل الحضر ، وسكان الأمصار والمدن ، **والاستمداد بها أعمُّ نفعاً** ، **وأوفرُ فرعاً** ؛ ولذلك ضرب الله تعالىٰ بها المثل فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرُ المالِ عينٌ ساهرةٌ لعينٍ نائمةٍ** »[3] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٧/ ٩٤) .

(٢) أورده الذهبي في « تاريخ الإسلام » (١٨/ ٢٢٥) .

(٣) أورده في « النهاية في غريب الحديث » (٢/ ٤٢٨) ، وأورده المبرّد في « الكامل » (١/ ٣٠٧) من قول =

وقال صلى الله عليه وسلم : « نِعمَتِ العمّةُ لكمُ النخلةُ !! تشربُ من عينٍ خَرّارةٍ ، وتُغرَسُ في أرضٍ خَوّارةٍ »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم في النخل : « هنَّ الراسخاتُ في الوَحلِ ، المُطعِماتُ في المَحْل »[٢] .

وقال بعض السلف : (خيرُ المال عينٌ خرّارةٌ ، في أرضٍ خوّارة ، تفجِّرها الفارة ؛ تسهر إذا نمتَ ، وتشهد إذا غبتَ ، وتكون عقِباً إذا متَّ)[٣] .

وروىٰ هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التمِسُوا الرِّزقَ في خَبايا الأرضِ » يعني : الزرع[٤] .

وحُكي عن المعتضد أنه قال : (رأيتُ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام في المنام ، فناولَني مِسحاةً ، فقال : خُذْها ؛ فإنَّها مفاتيحُ خزائن الأرض)[٥] .

وقال كسرىٰ للمُوبَذ : (ما قيمة تاجي هـٰذا ؟ فأطرق ساعةً ، وقال : ما أعرف له قيمةً إلا أن يكونَ مطرةً في نَيسان ؛ فإنَّها تُصلح من معايش الرعيّة ما تكون قيمتُه مثلَ مقدار تاج الملك)[٦] .

ولقي عبدُ الله بن عبد الملك ابنَ شهاب الزُّهريَّ ، فقال له : دلَّني علىٰ مالٍ

= سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وعين ساهرة : جارية لا تفتر أصلاً ، لعينٍ نائمة : وهي عين صاحبها ؛ لأنه فارغ البال .

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٦) ، و« البيان والتبيين » (٢/ ٢٠) ، وعين خرارة : غزيرة النبع كثيرة الجريان ، وأرض خوارة : لينة سهلة .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٣٩١٦) ، والشهاب في « مسنده » (١٣١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ٢٥٢) ، و« سمط اللآلي » (١/ ٣٧٥) من قول سيدنا معاوية رضي الله عنه .

(٤) رواه الإمام أحمد في « فضائل الصحابة » (٤٣١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٨٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٧٨) .

(٥) ذكرها القرطبي في « تفسيره » (٣/ ٣٠٦) .

(٦) ذكر نحوها ابن المجاور في « تاريخ المستبصر » (ص٣٢٢) عن أنوشروان يخاطب وزيره بزرجمهر .

أعالجُه ، فأنشأ ابنُ شهاب يقول : [من الطويل]

تَتبَّعْ خَبايا الأرضِ وادعُ مَليكَها لعلَّكَ يوماً أنْ تُجابَ فتُرزَقا
فيؤتِيكَ مالاً واسعاً ذا مَثابةٍ إذا ما مِياهُ الأرضِ غارَتْ تَدفَّقا[١]

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هـٰذا لبسط القول فيه ، غير أنَّ **مَن فَضَّل الزرع** . . فلقُرب مداه ، ووُفور جدواه ، **ومَن فضَّل الشجر** . . فلثُبوت أصله ، وتوالي ثمره .

* * *

وأمّا الثاني من أسبابها وهو نِتاج الحيوان : فهو مادةُ أهل الفلَوات ، وسكَّان الخيام ؛ **لأنَّهم لمَّا لم تستقرَّ بهم دار** ، ولم تضمَّهم أمصار . . **افتقروا إلى الأموال المنتقلة معهم** ، وما لا ينقطع نماؤه بالظَّعْن والرِّحلة ، **فاقتنَوا الحيوانَ** ؛ لأنَّه يستقلُّ في النُّقْلة بنفسه ، ويستغني في العُلوفة برعيه ، **ثم هو مركوبٌ ومحلوب** ، فكان اقتناؤه علىٰ أهل الخيام أيسرَ ؛ لقلَّة مَؤونته ، وتسهيل الكُلفة به ، **وكانت جدواه عليهم أكثرَ** ؛ لوُفور نسله ، واقتيات رِسْله[٢] ؛ إلهاماً من الله تعالىٰ لخلقه في تعديل المصالح فيهم ، وإرشاداً لعباده في قسمة المنافع بينهم .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرُ المالِ** : **مُهْرةٌ مأمورةٌ** ، أو سِكّةٌ مأبورةٌ » معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : (**مهرة مأمورة**) أي : كثيرة النَّسْل ، ومنه ما تأوَّل الحسن وقتادة قوله تعالىٰ : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ أي : أكثرنا عدَدَهم ، وأمّا (**السِّكّةُ المأبورةُ**) : فهي النخل المؤبَّرةُ الحَمل[٣] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال في الغنم : « **سَمْنُها مَعاشٌ ، وصُوفُها رِياشٌ** »[٤] .

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٩/ ٣٥٠) . وفي (أ) : (تَبَغَّ خبايا . . .) .
(٢) **واقتيات رِسْله** : ارتزاق لبنه ، وفي (هـ) : (ويستغني عن العلوفة) .
(٣) رواه ابن الأعرابي في « المعجم » (٥٠٠) ، والحارث في « مسنده » (٤٢٢) عن سيدنا سويد بن هبيرة رضي الله عنه ، وانظر « القضاء والقدر » للبيهقيّ (٣٣١) .
(٤) رواه الرامهرمزيّ في « أمثال الحديث » (١٢٢) .

ورُوي عن أبي ظبيان أنه قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ما مالُكَ يا أبا ظَبْيانَ ؟) قال : قلتُ : عطائي ألفانِ ، قال : (**اتَّخِذْ من هٰذا الحَرْث والسّابِياءِ** قبلَ أنْ تلِيَكَ غِلْمةٌ من قريش لا تعُدُّ العطاءَ معهم مالاً)[1] والسّابِياءُ : النِّتاج .

ورُوي أنَّ امرأة أتتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسولَ الله ؛ إنِّي اتَّخذتُ غنماً أبتغي نَسْلَها ورِسْلَها ، وإنَّها لا تَنمِي ، فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **ما ألوانُها ؟** » قالت : سُودٌ ، فقال لها : « **عَفِّري** »[2] .

وهٰذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم في مناكح الآدميِّين : « **اغترِبُوا . . لا تُضْوُوا** »[3] .

وأمّا الثالث من أسبابها وهو التجارة : فهي فرعٌ لمادّتي الزرع والنِّتاج ، ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تسعةُ أعشارِ الرِّزقِ في التِّجارة** ، والجزء الباقي في السّابِياءِ »[4] .

وهي نوعان :

- **تقلُّبٌ في الحضَر** ، من غير نُقْلة ولا سفَر ، **وهٰذا تربُّصٌ واحتكار** ، قد رغب عنه أولو الأقدار ، وزهد فيه ذوو الأخطار .

- **والثاني** : تقلُّبُ المال بالأسفار ، ونقلُه إلى الأمصار ، **فهٰذا أليقُ بأهل المروءة** ، وأعمُّ جَدوىً ومنفعة ، غير أنه أكثرُ خطَراً ، وأعظم غرَراً .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ المسافرَ ومالَه لَعلىٰ**

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٧٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٥٩٦) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٧٦) ، و« النهاية في غريب الحديث » (٣/ ٢٦١) .

(٣) أورده الحربيّ في « غريب الحديث » (٢/ ٣٧٩) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٦٧) من كلام العرب .

(٤) أورده أبو عبيد في « غريب الحديث » (١/ ٢٩٩) ، ورواه الرافعي القزويني في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ٢٣١) عن نعيم بن عبد الرحمٰن الأزديّ ، وليس في هٰذا الحديث تعرُّضٌ لأفضل طريق الكسب ، **وأفضلها** : سهم الغازي ، ثم الزراعة ، ثم الصناعة ، ثم التجارة . انظر « منهاج اليقين » (ص٣٦٨) .

قَلَتٍ إلا ما وَقَى اللهُ تعالىٰ »[1] يعني : علىٰ خَطَر .

وقيل : في التوراة : (يا بنَ آدمَ ؛ أحدِثْ سَفَراً . . أُحدِثْ لكَ رِزْقاً)[2] .

* * *

وأمّا الرابع من أسبابها وهو الصناعة : فقد تتعلّق بما مضىٰ من الأسباب الثلاثة ، وتنقسم أقساماً ثلاثة : صناعة فكر ، وصناعة عمل ، وصناعة مشتركة بين فكر وعمل ؛ لأنَّ الناس آلات للصناعات .

فأشرفُهم نفساً متهيِّءٌ لأشرفها جنساً ؛ كما أنَّ أرذلَهم نفساً متهيِّءٌ لأرذلها جنساً ؛ لأنَّ الطبع يبعث علىٰ ما لاءمه ، ويدعو إلىٰ ما جانسه .

حكي : أنَّ الإسكندر لمّا أراد الخروج إلىٰ أقاصي الأرض . . قال لأرسطاليس : (أُخرج معي ، قال : قد نحَل جسمي وضعف عن الحركة ، فلا تزعجْني ، قال : فما أصنع في عمَّالي خاصة ؟ قال : انظر ؛ فمَن كان له عَبيدٌ فأحسنَ سياستَهم . . فولِّهِ الجندَ ، ومن كانت له ضيعةٌ فأحسنَ تدبيرَها . . فولِّهِ الخَراجَ)[3] .

فنبَّهَه باعتبار الطِّباع علىٰ ما أغناه عن كُلَف التجربة .

* * *

وأشرفُ الصناعات : صناعةُ الفكر ، وأرذلُها : صناعةُ العمَل ؛ لأنَّ العمل نتيجةُ الفكر ، وهو مدبَّرٌ به .

فأمّا صناعة الفكر . . فقد تنقسم قسمين :

أحدهما : ما وقعت على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة ؛ كسياسة الناس ، وتدبير البلاد ، وقد أفردنا للسياسة كتاباً لخَّصنا فيه من جُمَلها ما ليس يحتمل هـٰذا الكتابُ ذكرَ زيادةٍ عليها[4] .

---

(١) أورده في « الجليس الصالح » (١/ ٥٨٦) ، و« تاريخ دمشق » (٥٠/ ٨٥) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٩) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٢٢٢) .
(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٥٢) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٣٣٧) .
(٤) لعله أراد رحمه الله تعالىٰ « قوانين الوزارة وسياسة الملك »، أو « الأحكام السلطانية »، والله تعالى أعلم.

والثاني : ما أدَّت إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية ، وقد مضىٰ في العلم من كتابنا هـٰذا بابٌ أغنىٰ ما فيه عن زيادة قولٍ فيه .

وأمّا صناعة العمل . فقد تنقسم **قسمين** : عمل صناعيّ ، وعمل بهيميّ .

فالعمل الصناعيّ : أعلاهما رتبةً ؛ لأنه يحتاج إلىٰ مُعاطاة في تعلُّمه ، ومُعاناة في تصوُّره ، فصار آخذاً للشبه من المعلومات الفكرية .

والآخر : إنَّما هو صناعة كدٍّ ، وآلةُ مهنةٍ ؛ وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرَّذِلة ، وتقف عليها الطباع الجاسية[1] ؛ كما قال أكثم بن صيفيّ : (**لكلِّ ساقطةٍ لاقطةٌ**)[2] .

وقال المُتلمِّس[3] : [من البسيط]

ولا يُقيمُ علىٰ ضَيمٍ يُسامُ بهِ ... إلا الأَذَلّانِ عَيْرُ الحَيِّ والوَتِدُ
هـٰذا على الخَسْفِ مربوطٌ برُمّتِهِ ... وذا يُشَجُّ فلا يَرثي لهُ أَحَدُ

وأمّا الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل . فقد تنقسم **قسمين** :

أحدهما : أن تكون صناعةُ الفكر أغلبَ ، والعملِ تبعاً ؛ كالكتابة .

والثاني : أن تكون صناعةُ العمل أغلبَ ، والفكرِ تبعاً ؛ كالبناء .

فأعلاهما رتبةً : ما كانت صناعةُ الفكر أغلبَ عليها ، والعملِ تبعاً لها .

فهـٰذه أحوال الخَلق التي ركَّبهم الله تعالىٰ عليها في ارتياد موادّهم ، **ووَكَلهم إلىٰ فِطَرهم في طلب أكسابهم** ، وفرّق **بين هِمَمهم** في التماسها ؛ **ليكون ذلك سبباً لألفتهم** .

فسبحانَ مَن تفرّد فينا بلطيف حكمته ، وأظهر لفِطَننا عزائمَ قدرته !!

---

(١) **الطباع الجاسية** : القاسية الصلبة الغليظة .

(٢) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٤١) ، والجاحظ في « المحاسن والأضداد » (ص ١٦) .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٠٨ ، ٢١١) .

وإذ قد وضح القول في أسباب الموادّ ، وجهات المكاسب . . **فليس يخلو حالُ الإنسان فيها من ثلاثة أمور** :

أحدها : أن يطلبَ منها قدرَ كفايته ، ويلتمسَ وَفْقَ حاجته ، من غير أن يتعدّىٰ إلىٰ زيادةٍ عليها ، أو يقتصرَ علىٰ نقصان منها ، **فهٰذه أحمدُ أحوال الطالبين** ، وأعدلُ مراتب المقتصدين .

وقد روىٰ قتادة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى اللهُ تعالىٰ إليَّ كلماتٍ ، فدخَلْنَ في أُذني ، ووَقَرْنَ في قلبي : **مَن أعطىٰ فضلَ مالِهِ** . . فهو خيرٌ له ، **ومَن أمسَكَ** . . فهو شرٌّ له ، **ولا يَلومُ اللهُ علىٰ كَفافٍ** »[1] .

وروىٰ حُمَيد ، عن معاويةَ بن حَيْدةَ قال : قلتُ : يا رسولَ الله ؛ **ما يكفيني من الدنيا ؟ قال** : « **ما سدَّ جَوعتَكَ ، وسترَ عَورتَكَ** ، فإنْ كان دارٌ . . فذاكَ ، وإنْ كان حمارٌ . . فبَخٍ بَخٍ ، **فِلَقٌ** من خبزٍ ، **وجَرٌّ** من ماءٍ ، وأنتَ مسؤولٌ عمّا فوقَ الإزار »[2] .

وقد حكي عن ابن عبّاسٍ ومجاهدٍ في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ : (**أنَّ كلَّ مَن يملكُ بيتاً وزوجةً وخادماً** . . **فهو مَلِكٌ**)[3] .

وروىٰ زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **مَن كان له بيتٌ وخادمٌ** . . **فهو مَلِكٌ** »[4] ، وهو في المعنىٰ صحيحٌ ؛ **لأنَّه بالزوجة والخادم مُطاعٌ في أمره** ، **وبالدار محجوبٌ إلا عن إذنه** .

وليس علىٰ مَنْ طلب قدرَ الكفاية ، ولم يتجاوز تبعات الزيادة **إلا توخِّي الحلال منه** ، وإجمالُ الطلب فيه ، ومجانبةُ الشبهة الممازجة له ؛ فقد روىٰ نافع ، عن

---

(١) رواه الطبريّ في « تفسيره » (٥٧/١١/٧) ، ورواه مسلم (١٠٣٦) ، والترمذي (٢٣٤٣) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .
(٢) رواه أبو يوسف الفَسَويّ في « المعرفة والتاريخ » (٤٦٧/٣) ، وفي (أ) : (عمّا فوق الإناء) .
(٣) رواه الطبريّ في « تفسيره » (٢٢٠/٦/٤) .
(٤) رواه الطبريّ في « تفسيره » (٢١٩/٦/٤) .

ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **الحَلالُ بيِّنٌ ، والحَرامُ بيِّنٌ** ، فدَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيبُكَ ، **فلن تجدَ فَقْدَ شيءٍ تركتَهُ للهِ** »[(١)] .

وسُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الزُّهد ، فقال : « أمَا إنَّه ليسَ بإضاعةِ المالِ ، ولا تحريمَ الحَلالِ ؛ **ولـٰكنْ أنْ تكونَ بما بيَدِ اللهِ أوثَقَ منكَ بما في يدِكَ** ، وأنْ يكونَ ثوابُ المُصيبةِ أرجَحَ عندَكَ مِن بَقائها »[(٢)] .

وحكىٰ عبد الله بن المبارك قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرَّاح بن عبد الله الحَكَميّ : (إنِ استطعتَ أن تدَعَ ممَّا أحلَّ اللهُ لك **ما يكون حاجزاً بينك وبين الحرام . . فافعَلْ** ؛ فإنَّه مَنِ استوعبَ الحلالَ . . تاقت نفسُه إلى الحرام)[(٣)] .

وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ فقال عكرمة : (**يعني : كسباً حراماً**) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (**هو إنفاقُ مَنْ لا يوقن بالخلَف**)[(٤)] .

وقال يحيى بن معاذ : (**الدِّرهمُ عقربٌ** ؛ فإن أحسنتَ رُقْيتَها ، وإلاَّ . . فلا تأخذْها)[(٥)] .

وقيل : (**مَن قلَّ توقِّيه . . كثُرَت مَساوِيه**)[(٦)] .

وقال بعض البلغاء : (**خيرُ الأموال** : ما أخذته من الحلال ، وصرفته في النَّوال ، **وشرُّ الأموال** : ما أخذته من الحرام ، وصرفته في الآثام)[(٧)] .

---

(١) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٤) ، وابن الأعرابي في « المعجم » (١٥٢٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٠) ، وابن ماجه (٤١٠٠) عن سيدنا أبي ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٧٠) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٠٦) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٦/ ٢٨٣) .

(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/ ٦٠) .

(٦) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ٦٥) .

(٧) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .

وكان الأوزاعيُّ الفقيه رحمه الله تعالىٰ كثيراً ما يتمثَّل بهٰذه الأبيات[1] : [من الكامل]

المـالُ ينفَـدُ حِلُّـهُ وحَـرامُـهُ ... يـومـاً وتبقـىٰ بعـدَهُ آثـامُـهُ
ليـسَ التقـيُّ بمُتَّـقٍ لإلٰهِـهِ ... حتّىٰ يطيبَ شرابُـهُ وطعـامُـهُ
ويطيـبَ مـا يجني ويكسبُ أهلَهُ ... ويطيبَ من لفظ الحديثِ كلامُهُ
فبـذاكَ خبَّـرَنـا النَّبـيُّ محمَّـدٌ ... فعلـى النبـيِّ صـلاتُـهُ وسـلامُـهُ

وحُكي عن ابن المعتمر السُّلَميِّ أنه قال : (**الناس ثلاثة أصنافٍ : أغنياء ، وفقراء ، وأوساط ، فالفقراء مَوتىٰ** إلا مَن أغناه الله تعالىٰ بعزِّ القناعة ، **والأغنياء سكارىٰ** إلا مَن عصَمَه الله تعالىٰ بتوقُّع الغِيَر ، **وأكثرُ الخير مع أكثر الأوساط** ، وأكثرُ الشرِّ مع أكثر الفقراء والأغنياء ؛ لسُخف الفقر ، وبطَر الغِنىٰ)[2] .

* * *

والحال الثانية : أن يقصِّر عن طلب كفايته ، ويزهد في التماس مادّته ، **وهٰذا التقصير قد يكون علىٰ ثلاثة أوجه** : فيكون تارة كسلاً ، وتارة توكُّلاً ، وتارة زهداً وتقنُّعاً .

ـ **فإن كان تقصيرُه لكسل** . . فقد حُرم ثروة النشاط ، ومرح الاغتباط ، ولن يعدم أن يكون كَلاًّ مقصيّاً ، أو ضائعاً شقيّاً .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **كاد الحسَدُ** أن يغلبَ القدرَ ، **وكاد الفقرُ** أن يكونَ كُفْراً »[3] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (**إن كان شيءٌ فوق الحياة** . . فالصِّحّةُ ، **وإن كان شيءٌ مثلَها** . . فالغنىٰ ، **وإن كان شيءٌ فوق الموت** . . فالمرضُ ، **وإن كان شيءٌ مثلَه** . . **فالفقرُ**)[4] .

---

(١) البيتان الأولان رواهما ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٥) للأوزاعي ، ورواها جميعاً في « شعب الإيمان » (٥٤٠٥) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٣٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٨٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٢٥٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٠٢) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٣٧) .

وقيل في منثور الحكم : (القبرُ خيرٌ من الفقر)[1] .

ووُجد في نيل مصرَ مكتوبٌ علىٰ حجر : [من الرمل]

عُقْبــةُ الصَّبــرِ نجــاحٌ وغِنــىً ... ورِداءُ الفقــرِ مــن نَسْــجِ الكَسَــلْ

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

أعـوذُ بـكَ اللَّهُـمَّ مـن بَطَـرِ الغِنـىٰ ... ومن نَهْكةِ البَلْوىٰ ومن ذِلّة الفقرِ
ومـن أمـلٍ يمتـدُّ فـي كـلِّ شـارقٍ ... ويـرجِعُنـي منـه بحـظٍّ يـدٍ صِفـرِ
إذا لم تدنِّسني الذُّنوبُ بعارِها ... فلستُ أُبالي ما تشعَّثَ من أمري

- وإن كان تقصيرُه لتوكُّل . . فذلك عجزٌ قد أعذر به نفسه ، وتركُ حزمٍ قد غيَّر اسمَه ؛ لأن الله تعالىٰ إنما أمر بالتوكُّل عند انقطاع الحِيَل ، والتسليم إلى القضاء بعد الإعذار .

وقد روىٰ معمر ، عن أيوب ، عن أبي قِلابةَ قال : ذُكِرَ عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ ، فذُكر فيه خير ، وقالوا : يا رسولَ الله ؛ خرج معنا حاجّاً ، فإذا نزلنا منزلاً . . لم يزلْ يصلِّي حتّىٰ نرتحلَ ، فإذا ارتحَلْنا . . لم يزل يذكرُ اللهَ تعالىٰ حتّىٰ ننزلَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « فمَن كان يكفيه عَلَفَ ناقته ، وصنعَ طعامه ؟ » قالوا : كلُّنا يا رسولَ الله ، قال : « فكلُّكم خيرٌ منه »[3] .

وقال بعض الحكماء : (ليس من توكُّل المرء إضاعتُه للحزم ، ولا من الحزم إضاعة نصيبه من التوكُّل)[4] .

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٣/ ٤٥٧) ، والقالي في « الأمالي » (١/ ١٠٢) من قول أوس بن حارثة .

(٢) من نهكة البلوىٰ : إهلاكها لي وإجهادها ، وكل شارق : لامعٍ كالشمس ، ويد صفر : خالية لا شيء فيها ، وما تشعث : ما تفرَّق .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٤٤٢) ، فكلكم خير منه ؛ لعدم كونكم كَلاًّ علىٰ غيركم ، أو لأنه راءىٰ بعمله ليستخدمكم ، فهو غير مأجورٍ في عمله ، وأنتم مأجورون في خدمتكم .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٨٢) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ١١٩) من قول المأمون .

- وإن كان تقصيره لزهدٍ وتقنُّعٍ . . فهـٰذه حالُ مَن علم بمحاسبة نفسه تَبِعات الغنىٰ والثروة ، وخاف عليها بوائقَ الهوىٰ والقدرة ، فآثر الفقر على الغنىٰ ، وزجر النفس عن ركوب الهوىٰ .

وقد روىٰ أبو الدرداء رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ما مِن يوم طلَعَتْ فيه شمسٌ إلا وبجَنْبَتيها مَلَكانِ يُناديانِ** ، يسمعهما خَلْقُ اللهِ كلُّهم إلا الثَّقَلَينِ : يا أيُّها الناسُ ؛ هَلُمُّوا إلىٰ ربِّكُم ، **إنَّ ما قلَّ وكفىٰ خيرٌ ممَّا كثُرَ وألهىٰ** »[١] .

وروىٰ زيد بن عليّ بن الحسين ، عن أبيه ، عن جدِّه عليهم السلام أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **انتظارُ الفرَجِ منَ اللهِ تعالىٰ عبادةٌ** ، ومَن رضيَ بالقليل منَ الرِّزقِ . . **رضيَ اللهُ تعالىٰ منه بالقليلِ منَ العَملِ** »[٢] .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : (**من نُبْل الفقر** : أنَّكَ لا تجدُ أحداً يعصي الله تعالىٰ ليفتقرَ)[٣] .

فأخذه محمود الورّاق فقال[٤] : [من السريع]

يـا عـائـبَ الفَقـرِ ألا تـزدَجـرْ ... عيـبُ الغِنـىٰ أكبـرُ لـو تعتبـرْ
مِـن شـرَفِ الفَقـرِ ومِـن فَضْلِـهِ ... على الغِنىٰ إنْ صَحَّ منكَ النَّظَرْ
أنَّـكَ تعصـي لتنـالَ الغِنـىٰ ... ولسـتَ تعصـي اللهَ كـي تفتقِـرْ

وقال ابن المقفَّع[٥] : [من الطويل]

دليلُـكَ أنَّ الفقـرَ خيـرٌ مـنَ الغِنـىٰ ... وأنَّ القليلَ المالِ خيرٌ منَ المُثْرِي

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣٢٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ١٢٩) ، عن علي بن الحسين رحمهما الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٤٧) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٣٢/ ٢٢٦) من قول السيد المسيح عليه السلام .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢١٦) .

(٥) أورد البيتين في « الوافي بالوفيات » (١٧/ ٦٣٤) ، وهما منسوبان لسيدنا عليّ رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٣١) .

لقاؤُكَ مخلوقاً عَصى اللهَ بالغِنىٰ ... ولم ترَ مخلوقاً عَصى اللهَ بالفقرِ

وهـٰذه الحال إنَّما تصحُّ لمَن نصح نفسه فأطاعته ، وصدَقها فأجابته ؛ حتىٰ لاَنَ قيادُها ، وهان عنادُها ، وعلمت أنَّ مَن لم يتقنَّع بالقليل . . لم يتقنَّع بالكثير ؛ كما كتب الحسن البصريُّ إلىٰ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالىٰ عنهما : (يا أخي ؛ مَن استغنىٰ بالله تعالىٰ . . اكتفىٰ ، ومَن انقطع إلىٰ غيره . . تعنَّىٰ ، ومَن كان من قليل الدنيا لا يشبعُ . . لم يُغنِه منها كثرةُ ما يجمع ، فعليكَ منها بالكَفاف ، وألزِم نفسَك العفافَ ، وإياكَ وجمعَ الفُضول ؛ فإنَّ حسابَه يطول)[1] .

وقال بعض الحكماء : (هيهاتَ منكَ الغِنىٰ إن لم يُقنعكَ ما حوَيتَ)[2] .

فأمَّا مَن عزفَتْ نفسه عن قَبول نصحه ، وجمحت به عن قناعة زهده . . فليس إلىٰ إكراهها سبيلٌ ، ولا إلى الحمل عليها وجهٌ إلا بالرياضة والمُرون ، وأن يستنزلها عن اليسير الذي لا تنفر منه ، فإذا استقرَّت عليه . . استنزلها إلىٰ ما هو أقلُّ منه ؛ لتنتهيَ بالتدريج إلى الغاية المطلوبة ، وتستقرَّ بالرياضة والمُرون على الحال المحبوبة ، فقد تقدَّم قول الحكماء بأنَّ الكره يسهُلُ بالمُرون .

فهـٰذا حكم ما في الحال الثانية من التقصير عن طلب الكفاية .

وأمّا الحال الثالثة : فهو ألاَّ يقنعَ بالكفاية ، ويطلب الزيادة والكثرة ، فقد يدعو إلىٰ ذلك أربعةُ أسباب :

أحدها : منازعة الشهوات التي لا تُنال إلا بزيادة المال ، وكثرة المادة ، فإذا نازعته الشهوةُ . . طلب من المال ما يوصله إليها ، وليس للشهوات حدٌّ متناهٍ ، فيصير ذلك ذريعةً إلىٰ أنَّ ما يطلبه من الزيادة غيرُ متناهٍ ، ومَن لم يتناهَ طلبُه . . استدامَ كدُّه وتعبُه ، ومَن استدام به الكدُّ والتعب . . لم يفِ التذاذُه بنيل شهواته ؛ بما يعانيه من استدامة كدِّه وإتعابه ، مع ما قد لزمه من ذمِّ الانقياد لمغالبة

(١) رواه البيهقي في « الزهد » (١٠٣) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) وقال بعضهم ـ كما في « منهاج اليقين » (ص٣٧٧) ـ : (انتقم من الحرص بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص) .

الشهوات ، والتعرُّض لاكتساب التَّبعات ؛ حتّىٰ يصيرَ كالبهيمة التي قد انصرف طلبُها إلىٰ ما تدعو إليه شهوتُها ، فلا تنزجرُ منه بعقل ، ولا تنكفُّ عنه بقناعة .

وقد روىٰ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن أرادَ اللهُ بهِ خيراً . . حالَ بينَه وبينَ شهوتِهِ ، وحالَ بينَه وبينَ قلبِهِ ، وإذا أرادَ اللهُ به شرّاً . . وَكَلَهُ إلىٰ نفسه » .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

وإنَّكَ إنْ أعطَيْتَ بطنَكَ همَّهُ وفَرْجَكَ نالا مُنتهى الذَّمِّ أجمَعا

والسبب الثاني : أن يطلب الزيادة ، ويلتمس الكثرة ؛ ليصرفها في وجوه الخير ، ويتقرَّب بها في وجوه البرّ ، ويصطنع بها المعروف ، ويغيث بها الملهوف .

فهٰذا أعذرُ ، وهو بالحمد أحرىٰ وأجدرُ إذا انصرفت عنه تبعات المطالب ، وتوقَّىٰ شبهات المكاسب ، وأحسنَ التقديرَ في حالتي فائدته وإفادته علىٰ قدر الزمان ، وبقدر الإمكان ؛ لأنَّ المال آلةُ المكارم ، وعونٌ على الدَّين والمغارم ، وبه يُتألَّف الإخوان .

ومَن فقده من أبناء الدنيا . . قلَّت الرغبةُ فيه ، والرهبةُ منه ، ومَن لم يكن منهم بموضعِ رهبةٍ ولا رغبةٍ . . استهانوا به ؛ وقد روىٰ عبد الله بن بُرَيدةَ ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أحسابَ أهلِ الدُّنيا هٰذا المالُ »[2] .

وقال مجاهد : (الخير في القرآن كلِّه : هو المال ؛ فمن ذلك قولُه تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني : المالَ ، ومنه : ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾

(١) البيت لحاتم الطائيّ في « ديوانه » (ص ٤٢) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٦٩) ، والنسائي (٦/ ٦٤) .

يعني : المالَ ، ومنه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ يعني : مالاً ، وقال سبحانه علىٰ لسان شعيب عليه السلام : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ يعني : الغنىٰ والمالَ)[1] .

وإنَّما سمَّى اللهُ تعالى المالَ خيراً إذا كان في الخير مصروفاً ؛ لأنَّ ما أدَّىٰ إلى الخير . . فهو في نفسه خيرٌ .

وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ، فقال السدّيّ وعبد الرحمـٰن بن زيد : (**الحسنة في الدنيا** : المالُ ، **وفي الآخرة** : الجنّةُ . وقال الحسن البصريُّ وسفيان الثوريُّ : **الحسنة في الدنيا** : العلمُ والعبادة ، **وفي الآخرة** : الجنّةُ)[2] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**الدراهم والدنانير خواتيمُ اللهِ في الأرض** ، لا تُؤكَلُ ولا تُشرَبُ ، حيثُ قصدتَ بها . . قُضِيَت حاجتُك)[3] .

وقال قيس بن سعد : (**اللهم** ؛ ارزقني حمداً ومجداً ، **فإنَّه لا حمدَ إلا بفَعال ، ولا مجدَ إلا بمال**)[4] .

وقيل لأبي الزِّناد : (**لِمَ تحبُّ الدراهمَ وهي تُدنِيكَ من الدنيا** ؟ فقال : هي وإن أدنَتني منها . . فقد صانَتني عنها)[5] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن أصلح مالَه . . فقد صان الأكرمَينِ** : الدِّينَ ، والعِرضَ)[6] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ١٥٩) .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ٤٠٠ـ٤٠١) .
(٣) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٥٠٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٣/ ٣٩٤) من قول وهب بن منبه رحمه الله تعالىٰ .
(٤) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٤٧) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢١٠) .
(٥) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢١٢) ، و« تاريخ دمشق » (٢٨/ ٦١) .
(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٨) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٩٨٥) .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن استغنىٰ . . كرُمَ علىٰ أهله**)[1] .

ومرَّ رجلٌ من أرباب الأموال ببعض العلماء ، فتحرَّكَ له وأكرمه ، فقيل له بعد ذلك : (أكانت لك إلىٰ هـٰذا حاجةٌ ؟ قال : لا ؛ **ولـٰكنِّي رأيتُ ذا المالِ مَهيباً**)[2] .

وسأل رجلٌ محمدَ بن عُمَير بن عُطارد وعَتّابَ بن ورقاءَ في عشر دِيَات ، فقال محمد : (عليَّ دِيَةٌ) ، وقال عتّاب : (الباقي عليَّ) ، فقال محمد : (**نعمَ العونُ على المجد اليسارُ**)[3] .

وكان يقال : (**الدراهمُ مَراهمُ** ؛ لأنها تداوي كلَّ جُرح ، ويطيب بها كلُّ صُلح)[4] .

وقيل في منثور الحكم : (**الفقرُ مَخذَلةٌ** ، والغِنىٰ مَجذَلةٌ ، **والبؤسُ مَرذَلةٌ** ، والسؤالُ مَبذَلةٌ)[5] .

وقال الأحنف بن قيس[6] : [من المتقارب]

فلـو مُـدَّ سَـرْوِي بمـالٍ كثيـرٍ ... لجُـدْتُ وكنـتُ لـه بـاذلا

فـإنَّ المـروءةَ لا تُستَطـاعُ ... إذا لـم يكـنْ مـالُهـا فـاضـلا

---

(١) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٢٨٩) ، والعسكريّ في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٢٩٧) لحصن بن حذيفة .

(٢) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ١٩١) ، وفي « محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٨١) للشعبيّ .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٢٩٢) .

(٤) أورد أوله في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٨) ، وذكره تاماً في « فيض القدير » (١/ ٤٢٦) .

(٥) ذكره الألوسي في « روح المعاني » (٤/ ٢٠٣) ، **ومخذلة** : داعٍ إلى الخذلان ، **ومجذلة** : داعي جذلٍ ؛ وهو الفرح ، **والبؤس مرذلة** : شدة الحاجة سبب رذالة ومساوىء أفعالٍ ، **والسؤال مبذلة** : داعٍ إلىٰ بذل الحياء وإراقة ماء الوجه .

(٦) أورد البيتين في « البيان والتبيين » (٢/ ٢٩٢) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٦٤٧) . والبيتان في (ج ، هـ) فقط ، **وسَرْوي** : مصدر (سرو الرجل) إذا كان ذا مروءة في شرفٍ وأصالة ، **ومعنى البيت** : تأسف وتلهف علىٰ عدم المال ؛ فكأنه قيل : (**الجود بذل الموجود**) .

وقال ابن الجُلاَح[1] : [من البسيط]

رُزِقتُ لُبّاً ولم أُرزَقْ مروءتَهُ ... وما المروءةُ إلا كثرةُ المالِ
إذا أردتُ مُساماةً تُباعِدُني ... عمَّا يُنوِّهُ باسمي رِقَّةُ الحالِ

وقال أوس بن حجر[2] : [من الطويل]

أُقيمُ بدارِ الحَزْمِ ما دامَ حَزْمُها ... وأحْرىٰ إذا حالَتْ بأنْ أتحَوَّلا
فإنِّي وجَدْتُ النّاسَ إلا أقلَّهُمْ ... خِفافَ العُهودِ يُكثِرونَ التَّنقُّلا
بَني أمِّ ذي المالِ الكثيرِ يرَونَهُ ... وإن كان عبداً سيدَ الأمرِ جَحْفَلا
وهُمْ لمقلِّ المالِ أولادُ عَلّةٍ ... وإن كان مَحْضاً في العَشيرة مُخوَلا

وقال أبو بشر الضرير[3] : [من الطويل]

كفىٰ حَزَناً أني أروحُ وأغتدي ... وما لي من مالٍ أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديقَ بمرحباً ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يُرضي

وقال آخر[4] : [من الطويل]

أجلَّكَ قومٌ حينَ صِرْتَ إلى الغِنىٰ ... وكلُّ غنيٍّ في العُيونِ جَليلُ
وليسَ الغِنىٰ إلا غِنىً زَيَّنَ الفَتىٰ ... عَشيّةَ يَقري أو غَداةَ يُنيلُ

وقد اختلف الناسُ في تفضيل الغنىٰ والفقر ، مع اتِّفاقهم : أنَّ ما أحوجَ من الفقر مكروهٌ ، وما أبطرَ من الغنىٰ مذمومٌ .

فذهب قوم إلىٰ تفضيل الغنىٰ على الفقر ؛ لأنَّ الغنيَّ مقتدر ، والفقيرَ عاجز ،

---

(١) البيتان ليسا في « ديوانه » المطبوع ، ومنسوبان للخليل في « ديوانه » (ص ١٨) ، وانظر « عيون الأخبار » (١/ ٢٣٩) ، والمساماة : المفاخرة .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ٨٣ ، ٩١) .
(٣) أوردهما ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٠٥) ، والبيتان زيادة من (ج ، هـ) .
(٤) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٣١٨) ، يقري : ما يقدم للضيف ، وينيل : يعطي ، وفي البيت نصح وإرشاد لِما يفعله صاحب المال ، أو هو تعريض ببخل المخاطب .